

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

تَفْسِیْر

سُوْرَةُ یُوْنُسَ

بقلم

سليمان بن محمد اللهيبيد

مقدمة

سورة يونس سورة مكية .

• سبب تسميتها بذلك :

سميت السورة " سورة بونس " لذكر قصته فيها ، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا ، بعد ان كاد يجل بهم البلاء والعذاب ، وهذا من الخصائص التي خص الله بها (قوم يونس) لصدق توبتهم وإيمانهم [فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين] !!

• موضوعها :

أ-سورة يونس من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة الاسلامية (الايان بالله تعالى ، والايان بالكتب ، والرسول ، والبعث والجزاء) .

ب-بيان حقيقة " الألوهية " و " العبودية " واساس الصلة بين الخالق والمخلوق ، وعرفت الناس برهم الحق الذي ينبغي ان يعبدوه ، وان يسلموا وجوههم اليه ، فهو وحده الخالق والمخلوق ، وعرفت الناس برهم الحكيم .

ج-وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن ، وذكرت ان هذا القرآن هو (المعجزة الخالدة) الدالة على صدق النبي الأمي ، وأنه يحمل برهانه في تفرد المعجز ، حيث تحداهم ان يأتوا بسورة من مثله فَعَجَزُوا .

د-وتحدثت السورة عن قصص بعض الانبياء ، فذكرت قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى مع فرعون الجبار ، وذكرت قصة نبي الله " يونس " الذي سميت السورة باسمه - وكل هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في اهلاك الظالمين ، ونصرة المؤمنين .

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) (١)

[يونس : ١] .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين .

(الكتاب) أي : القرآن الكريم .

وسمي القرآن كتاباً:

لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ: كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ).

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة: قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ. فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ. مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا، ونقرؤه من هذه الكتب.

(الْحَكِيمِ) وصف للقرآن .

وقد وصف الله كتابه بأنه (حكيم) في عدة آيات : كقوله تعالى (يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) ، وقوله تعالى

(الرِّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) .

• والحكيم بمعنى محكم ، أو بمعنى مُحكم ، أو بمعنى حاكم ، كلها تحتل .

فالقرآن حاكم : لأنه يجب الرجوع إليه .

قال تعالى (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) .

وبمعنى محكم : لأنه متقن للأشياء .

وبمعنى محكم : لأن الله تعالى أحكمه وأتقنه ، فليس فيه تناقض ولا تعارض (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ

لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) .

وأيضاً هو مشتمل على الحكمة .

وإذا كان حكيماً فإننا نعلم أنه :

أولاً : حكيم في ترتيبه .

ثانياً : حكيم في أحكامه ، فأحكامه كلها عدل ، موافقة للفطرة وللعقل الصريح .

ثالثاً : حكيم في أسلوبه .

ينتقل من أسلوب إلى آخر ، من ترغيب إلى تهيب ، وغير ذلك من الحكمة . (تفسير سورة يس للعثيمين)

• وقد ذكر السعدي شيئاً من إحكام آيات القرآن الحكيم فقال :

من إحكامها: أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها، وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها: أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، والتحريف.

ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق

لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها، نبي من الأنبياء .

ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو

خالص المفسدة أو راجحها، وكثيرا ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر حكمته فائدته، والنهي عن الشيء،

مع ذكر مضرتة.

ومن إحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ، الذي تعتدل به النفوس الخيرة، وتحتكم،

فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها: أنك تجد آياته المتكررة، كالقصص، والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها

تناقض، ولا اختلاف. فكلما ازداد بها البصير تدبرا، وأعمل فيها العقل تفكرا، انبهر عقله، وذهل لبه من

التوافق والتواطؤ، وحزم جزما لا يمتري فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن -مع أنه حكيم- يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به،

معروضون عن الإيمان والعمل به، إلا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم والمحسنون إلى

الخلق.

• ومن صفات القرآن :

منها : المجيد .

قال تعالى (بل هو قران مجيد) .

ومنها : الكريم .

قال تعالى (إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون) .

ومنها : العزيز .

قال تعالى (إنه لكتاب عزيز) .

ومنها : المبارك .

قال تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك) .

الفوائد :

١- إعجاز القرآن .

٢- بيان أن هذا القرآن الذي أعجز البشر لم يكن بدعاً من لسانهم ، وإنما هو من الحروف التي يتحدثون بها .

٢- من أسماء القرآن الكتاب .

٤- الثناء على القرآن بأنه حكيم .

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ هُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢))

[يونس : ٢] .

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ...) أي : أكان عجباً لأهل مكة إيحاءنا إلى رجل منهم هو " محمد ﷺ ؟ والهمزة للإنكار؛ أي لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة ، أوحى إلى رسلهم ليبلغوهم رسالة الله .

• كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: (أَبَشَّرْ يَهُدُونَنا) .

وقال هود وصالح لقومهما (أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ) .

وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا (أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) .

• وقد بَيَّنَّ تعالى في مواضع أُخَرَ أَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ عَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ .

قَالَ فِي عَجَبِ قَوْمِ نَبِيِّنَا ﷺ مِنْ ذَلِكَ (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) وَقَالَ (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ) .

وَقَالَ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ (ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَعَالُوا أ_Bَشَّرَ يَهُدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْتَبَى اللهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ) .

وَقَالَ (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَّرْنَا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ) .

وَقَالَ (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ) .

وَصَرَّحَ بِأَنَّ هَذَا الْعَجَبَ مِنْ إِسْأَالِ بَشَرٍ مَانِعٍ لِلنَّاسِ مِنَ الْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ
الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا) .

وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ : أَنَّ اللَّهَ مَا أَرْسَلَ لِنَبِيِّ آدَمَ إِلَّا رُسُلًا مِنَ الْبَشَرِ ، وَهُمْ رِجَالٌ يَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَيَتَزَوَّجُونَ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْبَشَرِ ؛ كَقَوْلِهِ هُنَا (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) .
وَقَوْلِهِ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، وَقَوْلِهِ : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ
إِلَّا أَنْهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) .

● **قال القرطبي:** لو جعل الله الرسول إلى البشر ملكاً لفروا من مقارنته وما أنسوا به ، ولدخلهم من الرعب
والالتقاء له ما يكفهم من كلامه ، ويمنعهم عن سؤاله ، فلا تعم المصلحة ، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى
مثل صورتهم لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم.
(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا) أي : وعملوا الصالحات . كما قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) .
هذا أمر من الله لنبيه محمد ﷺ بإبلاغ بشارته خلقه الذين آمنوا به وبمحمد ﷺ ، وبما جاء به من عند ربه ،
وصدقوا بإيمانهم ذلك وإقرارهم بأعمالهم الصالحة ، أن له جنات تجري من تحتها الأنهار خاصة .

● التبشير الإخبار بما يسر .
● قوله تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا) فيه استحباب تبشير المسلم بما يسره، لأن البشارة مما تسر المسلم وتفرحه،
وقد قال تعالى (فبشرناه بغلام حليم) وقال تعالى (وبشروه بغلام عليم) .
● قوله تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا) التبشير : الإخبار بما يسر ، وسمي بذلك لأنه يظهر أثره على البشارة وهو
ظاهر الجلد، والغالب أنه يستعمل في التبشير بالخير، وقد يستعمل في الشر تحكماً كقوله تعالى (فبشرهم بعذاب
أليم) .

(أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) أي : بأن لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الاعمال .
وهذا كقوله تعالى (لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا
مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَتَدَارُونَ) .

(قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ) أي : ومع وضوح صدق الرسول ﷺ وإعجاز القرآن ، قال المشركون :
إن محمداً لساحر ظاهر السحر ، مبطل فيما يدعيه .

● **قال البيضاوي:** وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة، معجزة إياهم عن المعارضة،
وهو اعتراف من حيث لا يشعرون، بأن ما جاء به خارج عن طوق البشر .
وهكذا طريقة الأمم المكذبة : اتهام الرسل والدعاء بالسحر أو الجنون .
قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
طَاغُونَ) .

الفوائد :

- ١- تعجب الكفار من إرسال رسول من البشر .
- ٢- تعنت الكفار في خلق أعداء للتكذيب بالرسول .
- ٣- حكمة الله في جعل الرسول من البشر .
- ٤- أن من مهمة الرسول تبشير المؤمنين بكل خير .
- ٥- فضل الإيمان .
- ٦- من أساليب الداعية تبشير المؤمنين وتثبيتهم بذكر ما أعد الله لهم من الأجور الكبيرة على إيمانهم .
- ٧- الاقتداء بالنبي ﷺ بالصبر في الأذى القولي أو الفعلي الذي قد يواجهه من الأعداء .
وقد قال تعالى (وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَيَّ مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) .
(وَأُودُوا) بالقول والفعل ، فقد أودى أنبياء الله بالقول والفعل .
بالقول: فقد كان يقال لكل واحد منهم: ساحر ، ومجنون ، وكذاب .
بالفعل: منهم من ضرب ، ومن قتل .
لأن من قام بدين الإسلام ودعا الناس إليه ، فقد تحمل أمراً عظيماً ، وقام مقام الرسل في الدعوة إلى الله .
والدعوة إلى الله تحتاج إلى صبر ، ذلك أن أصحاب الدعوة إلى الله يطلبون إلى الناس أن يتحرروا من أهوائهم وأوهامهم ومألوفاتهم ، وأكثر الناس لا يؤمنون بهذه الدعوة الجديدة ، فلهذا يقاومونها بكل قوة ، ويحاربون دعواتها بكل سلاح ، مدلين بأنهم أكثر مالا وأعز نفراً ، وأقوى نفوذاً ، وأوسع سلطاناً .
فأذية الداعية طبيعة البشر:
قال الله تعالى لنبيه (وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَيَّ مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) .
والرسل أودوا بالقول والفعل ، قال الله (وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) .
بل إن منهم من تعرض للقتل، قال سبحانه (أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنَّا لَأْتَهُوَ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقْنَا كَذِبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) .
ومن قام بما قام به الرسل ناله ما نالهم ، قال سبحانه (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) .
وبالصبر مع التقوى لا يضر كيد العدو قال تعالى (وَإِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّضِرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ) .

(إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَقْلًا تَذَكَّرُونَ (٣))
[يونس : ٣] .

(إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) أي : أوجدهما من العدم على وجه الإحكام والإتقان.

- قال ابن كثير: يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة - وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام.
- الرب هو المالك المتصرف المعبود المدير لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة.
- ومعاني الرب في لسان العرب ترجع إلى ثلاثة أصول: السيد، المالك، المصلح للشيء القائم عليه.
- قوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) أي : الذي أوجدها على تقدير محكم ، لأن الأصل أن الخلق لغة هو التقدير .

والله يحمد على ذلك كما قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) .

- وإنما ذكر السموات والأرض ، لأنهما من أعظم المحلوقات .
- وخلقهما بالحق .

قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي: وليس عبثاً ، فإن الله منزّه عن العبث ، فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة ، فالحق ضد الباطل ، فالله خلقهما لحكم باهرة ، لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ولا لعباً .

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) .

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آتَاخِذًا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ) .

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) .

فمن الحق الذي كان خلقهما من أجله: إقامة البرهان على أنه الواحد المعبود وحده جل وعلا.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان ، صفات من يستحق أن يعبد ومن لا يستحق ، قال في صفات من يستحق العبادة (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا).

والآيات في مثل ذلك كثيرة تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق .

ومن الحق الذي من أجله خلق السماوات والأرض ، تعليمه لخلقه أنه تعالى على كل شيء قدير ، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، كما قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا).

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما: هو تكليف الخلق، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً ثم جزأهم على أعمالهم، كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا).

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء ، هددهم بالويل من النار بسبب ذلك الظن السيئ فقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) .

وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً ، فقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). فقوله تعالى (فَتَعَالَى اللَّهُ) أي: تنزه وتعظيم وتقدس عن أن يكون خلقهم لا لحكمة.

● قوله تعالى (السماوات) فيه دليل على أن السماوات سبع ، وهذا منصوص عليه في القرآن في آيات كثيرة كقوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) وقال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) .

وأما الأرض فهي سبع أيضاً لظاهر القرآن وصريح السنة ، قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) وأما السنة فقوله ﷺ (من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أراضين) متفق عليه .

● قوله تعالى (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة.
● قال ابن عطية: وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتدئ يوم الأحد، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء.

● وقال القرطبي: قوله تعالى (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة.
● وقال ابن كثير: والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة -وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام.

● وقد اختلف في مقدار هذه الأيام:
فقيل: كأيامنا هذه.

لأن الله أطلقها، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه.

وقيل: كل يوم مقدار خمسين ألف سنة.

وقيل: المراد باليوم لحظة.

والراجع الأول.

● فإن قيل: أليس الله بقادر على أن يخلقها في لحظة؟

فالجواب: بلى، لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

فمن المقرر عند أهل الإيمان الراسخ والتوحيد الكامل أن المولى جل وعلا قادر على كل شيء، وقدرته سبحانه ليس لها حدود، فله سبحانه مطلق القدرة وكمال الإرادة، ومنتهى الأمر والقضاء، وإذا أراد شيئاً كان كما أراد وفي الوقت الذي يريد، وبالكيفية التي أرادها سبحانه وتعالى.

وقد تواترت النصوص القطعية من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ على تقرير هذا الأمر وبيانه بياناً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض.

قال تعالى (بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون).

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة (يبين بذلك تعالى كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له كن _ أي: مرة واحدة _ فيكون، أي فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (... قال كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر).

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره هذه الآية (٤ / ٢٦١): (وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال: (وما أمرنا إلا واحدة) أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قوله فيكون) أ. هـ.

● وإنما خلقها في ستة أيام لحكمتين:

الحكمة الأولى: أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض، فرتب الله بعضها على بعض حتى أحكمها.

الحكمة الثانية: أن الله علم عباده التؤدة والتأني، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه.

● هذه الأيام أربعة منها للأرض، ويومان للماء، كما فصل ذلك في سورة فصلت: (قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ).

● **قال الإمام القرطبي:** وذكر هذه المدة - أي ستة أيام - ولو أراد خلقها في لحظة لفعل؛ إذ هو القادر على

أن يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد:

○ أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور.

○ ولتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء

o وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً، ويبن بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً

• **وقال ابن الجوزي:** فإن قيل: فهلا خلقها في لحظة، فإنه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة: أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، ذكره ابن الأنباري. والثاني: أنه التثبت في تمهيد ما خلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة. والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله (كن فيكون).

والرابع: أنه علم عباده التثبيت، فإذا ثبت من لا يزال، كان ذو الزلل أولى بالتثبيت. والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق) ا.هـ. • وقال القاضي أبو السعود (... وفي خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار، واعتبار للنظار، وحث على التأني في الأمور) ا.

(**تَمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**) أي: علا وارتفع على العرش، وأما كيفية ذلك فالله أعلم بكيفيته.

• والعرش: ذلك السقف المحيط بالمخلوقات، وهو من أعظم المخلوقات.

• وفي الآية إثبات العرش.

والعرش: لغة عبارة عن السرير الذي للملك، سمي عرشاً لارتفاعه عليه .
وشرعاً: هو العرش الذي أضافه الله لنفسه وهو سرير عظيم ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم، وهو سقف هذه المخلوقات، وقد وصفه الله بأوصاف عظيمة:

وصفه بالعظمة:

قال تعالى (ورب العرش العظيم).

ووصفه بأنه كريم:

قال تعالى (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم).

ومدح نفسه سبحانه بأنه ذو عرش:

كما قال تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش).

وأخبر سبحانه أن للعرش حملة:

قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله ...).

وقال تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية).

وأخبر سبحانه أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض.

قال تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء).

وأخبر النبي ﷺ أن العرش فوق الفردوس.

قال ﷺ (إذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن).

وله قوائم.

قال ﷺ (لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ...).

• في هذه الآية إثبات أن الله مستو على عرشه، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة، استواء يليق بجلاله من غير تكييف.

وقد ذكر الله استوائه على العرش في سبع مواضع من القرآن.

وقد فسر أهل التعطيل الاستواء بمعنى الاستيلاء، واستدلوا بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف أو درهم راق

لكن هذا البيت لا يعرف قائله.

(يُدْبِرُ الْأَمْرَ) أي: يدبر أمر الخلائق، في العالم العلوي والسفلي من الإمامة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضورين، وإجابة سؤال السائلين.

فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مذعنون لعزه خاضعون لعظمته وسلطانه.

كما قال تعالى (لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه

المسائل، ولا يتبرم بالحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعمران والقفار .

وقال تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

وقال تعالى (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله ولا

يأذن، إلا لمن ارتضى، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له.

كقوله تعالى (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) .

وكقوله تعالى (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى)

وقوله (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) .

(ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ) أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له .

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام.

الفوائد :

١ - أن الخالق لكل شيء هو الله.

٢ - أن الذي لا يخلق لا يستحق أن يعبد.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ) .

وقال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

٣ - إٲبات استواء الله على عرشه استواء يليق بجلاله.

٤ - إٲبات علو الله تعالى.